﴿*فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [النَّمل: 56 - 58]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

عناد المجرمين يفضي بهم إلى العذاب والهلاك

لَمّا أشارَ النَّظمُ القرآنيُّ الكريمُ إلى تَغالي قومِ لوطٍ ﷺ في الجهلِ وافْتخارِهم به، وقولِ لوطٍ ﷺ لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النَّمل: 55]، جاء جوابُ قومِه عاريًا عن أيِّ حُجَّةٍ في دفعِ ما وقعوا فيه من جَهْل؛ بل قد صَدَّقوه في نسبتِه لهمُ الجَهْلَ، بأن قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾، مُعلِّلينَ ذلك بقولهم: إنَّهم أُناسٌ يتطهَّرونَ من أفعالِنا النَّجِسةِ، ويتنزَّهونَ عنها، فلمّا وصلوا في هذا الخُبثِ إلى هذا الحدِّ، قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ جميعَهم منَ العذاب، إلّا امرأتَه جعلناها مع الباقين في القريةِ، ليلحق العذابُ بها معهم، وأَمْطَرنا عليهم الحجارةَ، فساءَ المَطَرُ الَّذي هو أشدُّ وأَقْسى عذابٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾: (طهر) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى نَقاءٍ وزَوالِ دَنَسٍ[2]، والطُّهرُ: نقيضُ النَّجاسَة، والجمع أطهارٌ، وقد طَهَرَ يَطهُرُ، وطَهُرَ، طَهرًا وطَهارَةً، والمصدران عَن سيبَوَيْهِ. ورجل طاهِرٌ، وطَهِرٌ عَنِ ابْن الأَعرابي[3]. والطَّهارةُ ضَرْبان: طَهارةُ جِسْم، وطهارةُ نَفْس، وحُمِلَ عليها عامَّةُ الآيات، يقالُ: طَهَّرْتُهُ فَطَهُرَ، وتَطَهَّرَ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 183 - 184.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طهر).
(3) ابن سيده، المحكم: 4/ 245.

واطَّهَرَ فهو طاهرٌ ومُتَطهِّرٌ[1]، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: 6]، وهي طهارةُ الجسم باسْتعمالِ الماء أو ما يقومُ مقامَه، قال تعالى: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: 222]، أي: التّاركينَ للذَّنْبِ والعاملينَ للصَّلاح[2]. ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، أي: يتنزَّهونَ عن فعلِ الفاحشةِ بالرِّجال[3].

2) ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾: (قدر) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِه[4]، وقَدَرَ على الشَّيء قُدْرَةً وقُدْرانًا، وقَدِرَ يَقْدَرُ قُدْرَةً لغةٌ فيه كعلِمَ يَعْلَمُ، وقَدَرَ الشَّيءَ، أي: قدَّرَهُ منَ التَّقدير، وبابُه: ضَرَبَ ونَصَرَ[5]. والقُدرةُ: إذا وُصِفَ بها الإنسانُ فاسْمٌ لهَيْئَةٍ له بها يتمكَّنُ من فعلِ شيءٍ ما، وإذا وُصِفَ اللّهُ تعالى بها، فهي نَفْيُ العَجْزِ عنه، وإيْجادُهُ الشَّيءَ بالفعلِ على مقدارٍ مخصوصٍ ووَجْهٍ مخصوصٍ، حَسْبَما اقْتضتِ الحكمةُ، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: 60]، فاللّهُ هو المقدِّر[6]، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: قدَّرْنا كَوْنَها منَ الغابرين[7]، أو قدَّرناها بما كتبنا عليها وقضينا أنَّها[8]، أو جعلناها بتقديرنا[9].

3) ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: (غبر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على البَقاء، وغَبَرَ أيضًا: مَضى، وهو من الأضداد[10]. يُقالُ: بالنّاقةِ غُبَرٌ، أي: بقيَّةٌ، وبه غُبَرٌ من مرَضٍ، أي: بقيَّةٌ[11]، قال أبو بكر: الغابر في كلام العرب: الباقي، وهو الأشهرُ عندهم. وقد يقال أيضًا للماضي[12]، والغابر منَ اللّيل: ما بقي منه، والغابر: الباقي، هذا هو المعروف والكثير في كلام العرب، ومنه ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾ [الأعراف: 83]، وقوله: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥﴾ [الصّافات: 135]، هي

(1) ابن الحدّاد، الأفعال: 3/ 273، والرّاغب، المفردات: (طهر).
(2) الرّاغب، المفردات: (طهر).
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 192.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قدر).
(5) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (قدر).
(6) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(7) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 154.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 2.
(9) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 95.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّازي، مختار الصّحاح: (غبر).
(11) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غبر).
(12) ابن الأنباريّ، كتاب الزّاهر في معاني النّاس: 2/ 324.

امرأةُ لوطٍ بقيت في القرية ولم تخرج معهم، فلم تنجُ معهم[1]، وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقينَ في العذاب[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ ﷻ عن جوابِ قومِ لوطٍ ﷺ، لَمّا أَنْذَرهم نِقمةَ اللّهِ بهم في فعلِهمُ الفاحشةَ الَّتي لم يَسبقْهم إليها أحدٌ من بني آدمَ، ذاك الجوابُ المُعبِّر عن الكِبْرِ والضَّلال، وهو أنَّهم قالوا: أَخْرِجوا آل لوطٍ، إنَّهم أُناسٌ يتحرَّجونَ من فِعْلِ ما تفعلون، فعزَموا على ذلك، فدمَّرَ اللّهُ عليهم قَرْيتَهم، وأَنْجى اللّهُ تعالى لوطًا ﷺ وأهلَه، إلّا امرأتَه بقيتْ مع الهالكينَ؛ لأنَّها كانت تدُلُّ قومَها على ضيفانِ لوطٍ ﷺ ليأتوا إليهم، وكان عذابُهم حجارةً من سجّيلٍ مَنْضودٍ، مسوَّمةً عند ربِّكَ، فقبُحَ هذا المطرُ منَ الحجارةِ الملتهبةِ نارًا، فقد وصلَ إليهم الإنذارُ، لكنَّهم كذَّبوا رسولَهم، فَبِئْسَ ما أصابَ أولئك المنذَرين[3].

من التزم العفّةَ نجا، ومن انْتكسَ عن الفطرةِ السَّليمة، آلَ إلى عاقبة ذميمة

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في قوله: ﴿فَمَا كَانَ﴾:

جاء العطفُ هنا في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾، من قَبيلِ عَطْفِ الجُملةِ المصدَّرةِ بالفاءِ على الَّتي قبلها: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [النَّمل: 54]، تعقيبَ جُزْءِ القصَّةِ على أوَّله، فلا تُفيدُ إلّا تعقيبَ الإخبار، وهي في ذلك مساويةٌ للواو[4]، وهذا العطفُ في: ﴿فَمَا كَانَ﴾، يقتضي المبالغةَ في الرَّدِّ حيث لم يُمهِلوا في الجواب زمانًا؛ بل أَعْجلوه بالجوابِ سرعةً وعدَمَ البراءةِ بما يُجاوبونَ به[5].

لا تجتمعُ طهارةُ الإيمانِ، مع دنَس الكفران

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 3/ 552.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 2، وابن أبي حاتم، التَّفسير: 9/ 2905، عن ابن عباس.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 345 - 346.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 5.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 101.

وقد تكون الفاء هنا للإفْصاحِ عن شرطٍ مُقدَّر، أي: إذا ما كانوا على هذه الحالِ من سَيْطرةِ الجهل، فإنَّ الجهلَ لا يطيقُ الطَّهارةَ والتَّطهُّر، ولذا كان جوابُهم - وإن قالوا مُصِرّينَ - أَخْرِجوا آلَ لوطٍ من مدينتِكُمُ العظيمة؛ لأنَّه لا تجتمعُ الطَّهارةُ المعفّةُ، مع الدَّناسةِ الجاهلة المسفّةِ[1].

دلالةُ لفظِ (ما) على النّفي:

(ما) في قوله تعالى: ﴿*فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ نافيةٌ، تفيدُ التَّأكيدَ، وقد كان يمكنُ أن يُقال: فكانَ جوابَ قومه، فمجيء (ما) هنا حسّن دخولَ ﴿إِلَّآ﴾ ليجتمع نفيٌ مع استثناء للدّلالة على المبالغة بأسلوب القصر.

تأكيدُ جوابِ الشّاذّين عنِ الفطرة، بِنَفْيِ نُصح من يُنكر عليهم

سرُّ مجيءِ فعلِ الكَوْنِ ماضيًا:

جاءَ فعلُ الكونِ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿*فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ للدَّلالةِ على صدورِ هذا الجوابِ عنهم، على يقين تامٍّ بالكُفْرِ والعناد، وأنَّه صدر عنهم في المرَّةِ الأخيرةِ من مرّاتٍ عديدة قبْلَها، مقابلَ تكرّر مواعظِ لوطٍ ﷺ بالأمرِ والنَّهي، لا أنَّه لم يصدرْ عنهم كلامٌ آخرُ غيرُه[2].

التَّحقُّقُ بالعنادِ التّامِّ، في مواجهةِ دعوةِ الرُّسُل الكرام

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ الجوابِ دون غيره:

الجوابُ: هو الكلامُ الَّذي يُقابَلُ به كلامٌ آخر: تقريرًا، أو ردًّا، أو جزاءً[3]، وهؤلاءِ الثَّلاثةُ توافرتْ وتوفَّرت في جوابِهم لنبيِّهم، وذلك أنَّه لَمّا لم يكن لقومِ لوطٍ ﷺ حُجَّةٌ في دفعِ اسْتنكارِ نبيِّهم لفعلِهم القبيح بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النَّمل: 54 - 55] - وهو كلامٌ حَسَنٌ مُقنِعٌ، لمن كان له حظٌّ يسيرٌ، من خُلُقٍ أو بقيَّةٌ من

عظيمُ الجهل في ردّ كلام النّاصح الصّادق

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5466.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 270.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 235.

حياء -، جاء جوابُهم ردًّا مصدِّقًا في نسبتِه لهم إلى الجهل، وقد حمَلَ معه تقريرًا منهم، في صيغةِ جوابٍ مُؤكِّدٍ صحَّةَ ما اسْتنكره عليهم، ولم يكن لهم حيلةٌ إلّا الأمرُ بإيقاعِ الجزاء عليه بنَفْيه وأهلِه من قريتِهم[1].

سرُّ إضافةِ الجواب إلى القوم:

صدورُ الجوابِ بالنَّتيجةِ الفعليَّة بالإخراج، لا بمجرَّد القولِ والحِجاج

جاءتْ إضافةُ الجوابِ إلى القومِ في قوله تعالى: ﴿*فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الجوابَ هو الَّذي صدرَ عنهم كلِّهم جميعًا، فقد تواطؤوا على الفاحشة، وعلى قلب الفطرةِ التي فطر اللّه الخلقَ عليها، وكأنّهم يظنّون أنّهم بجواب الإقصاء، وإعلانِ البغضاء، وطردِ لوطٍ ﷺ، هذه الطّردةَ الشّنعاءَ، سيخلو لهم الجوُّ فيعيثون في الأرض فسادًا، ولا يجدون من ينكر عليهم فِعالَهم، أو يَنعى عليهم شذوذَهم، أو يحاولُ ردَّهم إلى صوابهم، ولا يطالُهُمُ العقاب، وهنا تأتي العقوبة من حيث لا يحتسبون، ولا عجبَ، إذْ مِن مأمنه يُؤتَى الحذِرُ، كما قالتِ العرب[2].

نكتةُ عدمِ مطابقة الجوابِ:

المعانِدون للحقِّ والهداية، يُعامِلونَ أنبياءَهم بالجَفاء والإذاية

لم يُطابِقْ جوابُ القومِ في قولِهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، ما أنكره عليهم لوطٌ ﷺ بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [النمل: 54]، إلى أن قال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النَّمل: 55]؛ لأنَّه لَما أَنْكرَ عليهمُ الفاحشةَ، وعظَّمَ أمرَها، ونَسَبَهم إلى الإسرافِ، بادَروا بشيءٍ لا تعلُّقَ له بكلامِه، وهو الأمرُ بالإخراج، ونظيرُه جوابُ قومِ إبراهيمَ ﷺ له، بأن قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: 68][3]، ونظيرُه كذلك موقفُ كفّارِ قريشٍ من رسولِ اللّه ﷺ، عندما دعاهم إلى الإيمانِ باللّه، وتركِ عبادةِ الأوثان، ممّا حكاه لنا القرآنُ، في قوله

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 182.
(2) أحمد حطيبة، تفسير أحمد حطيبة: 4/ 151.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 101.

تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ﴾ [الأنفال: 30]، وهذا يدلُّ على انقطاع حجّتِهم، وبهتِهم عن كلِّ إجابة وعذرٍ؛ إذ فاحشتُهم أمرٌ معلوم النّكير باتّفاق كلِّ من سَلمت فطرتُه عنِ الانحراف، فغاب عنهم الجوابُ وذهبوا إلى التّهديد والوعيدِ.

نكتةُ مرجع ضميرِ في: ﴿قَوْمِهِۦٓ﴾:

قـومُ لـوطٍ عليه السلام، هـم أسـوءُ قـومٍ في تاريخ النّبوّات

في قوله تعالى: ﴿قَوْمِهِۦٓ﴾ عادَ الضَّميرُ (الهاء)، إلى نبيِّ اللّهِ لوطٍ عليه السلام، أي: قومِ نبيِّ اللّهِ لوطٍ عليه السلام الَّذين كانوا يفعلون أقبحَ الأعمال، وإضافةُ القومِ إلى لوطٍ عليه السلام، للدَّلالةِ على أنَّه ليس دخيلًا بينهم؛ بل هو من أُسْرتِهم وجماعتِهم، ولكنَّهمُ انْحرفوا عنِ الإنسانيَّةِ والفطرةِ السَّويَّة[1].

دلالةُ الاستثناءِ المُفرّغِ في الآية:

لا جـــوابَ للمعاندين إلّا إنـزالُ العقوبةِ بـالـــدُّعـــاةِ النّاصحين

قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ اسْتثناءٌ مُفرَّغٌ، وما بعده واقعٌ في موقعِ اسْمِ كان، وهذا هو الاسْتعمالُ الفصيحُ في مثلِ هذا التَّركيب، إذا كان أحدُ مَعْمولَي ﴿كَانَ﴾ مَصْدرًا مُنْسبِكًا من ﴿أَن﴾ والفعلِ بعدَها، وهذا الاسْتثناءُ، يدلّ على قَصْرِ الجوابِ على ما قالوا دون غيره[2]؛ إذِ الاسْتثناءُ المفرّغُ مع النّفي يفيد القَصْرَ الاصْطلاحيَّ على معنَى (إنَّما)[3]، فكأنَّ القومَ قالوا: إنَّما جوابُنا على إنكارك، أو ما جوابُنا على إنكارِك إلّا إخراجُكَ من قريتِنا، فقصَروا جوابَهم لنبيِّ اللّهِ لوطٍ عليه السلام، على هذا المعنَى تعنُّتًا في الباطل، وعنادًا عن قَبولِ الحقّ، وإنفاذًا للإجراءِ الجزائيّ الَّذي لا جزاءَ غيره عندهم؛ فإنّهم عجزوا عن كلِّ جواب وعذر، فلم يجدوا إلّا المكابرةَ والتّهديد.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/ 2892.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 213، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 235.
(3) جامعة المدينة العالمية، البلاغة، المعاني، ص: 433 - 434.

سرُّ ورودِ الحرفِ ﴿أَن﴾ في السّياق:

المحافظةُ على الحَدَثِ مع زمنِه، مفصحةٌ عنِ المراد

﴿أَن﴾ حرفٌ مصدريٌّ، يُؤوَّلُ مع الفعلِ بعده ﴿قَالُوٓاْ﴾ بمصدرٍ، على أنَّه اسْمُ ﴿كَانَ﴾ المؤخَّرُ، ووروُدُ الحرفِ ﴿أَن﴾ هنا قبلَ الفعل الماضي، حافظَ على الزَّمنِ الماضي في ﴿قَالُوٓاْ﴾، ولو عُبِّر عن ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾ بالمصدر (قولُهم) لانْتفى عنصرُ زمنِ الحدث الَّذي سيقتْ ﴿أَن﴾ من أجلِه، وبقي الحَدَثُ مجرَّدًا عن زمنِه[1].

سرُّ مجيءِ فعلِ القول ماضيًا مضافًا إليهم:

تحقُّقُ الفعلِ بزمنِه الماضي، من قِبَلِ قومِ لوطٍ عليه السلام

جاءَ فعلُ القولِ ماضيًا في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قومُ لوطٍ عليه السلام لإفادةِ أنّ الحَدَثَ الَّذي وردَ في سياقِ الآيةِ بمشهدِ المناظرةِ والحوارِ، ما بين اسْتنكارِ لوطٍ عليه السلام قبائحَ قومِه وفُحشَهم المُقذِعَ، وردِّهم استنكارَه بأن قالوا: أَخْرِجوا آلَ لوطٍ من قريتِكم، فهذا المشهدُ هو حَدَثٌ وقعَ في زمنٍ ماضٍ عبَّر عنه السّياقُ بالفعل الماضي، الَّذي تحقَّقَ وقوعُه من قومِه، بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾[2].

دلالةُ فِعْلِ الأمرِ في قولِه: ﴿أَخْرِجُوٓاْ﴾:

إصرارُ الشّاذّينَ على إخراجِ العفيفينَ من أرضِهم

قولُه تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني إصرارَ القومِ الكافرين الشّاذّين على إخراجِ آلِ لوطٍ منَ القرية؛ لأنَّه لا تجتمعُ الطَّهارةُ العفيفةُ، مع النَّجاسةِ السّخيفة[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالإخراجِ، دون مُرادفاتِه:

إخراجُ الكافرين لوطًا ومن معه استراحةٌ منَ العذل، وهروبٌ منَ الحقِّ

جاء التَّعبيرُ بالإخراجِ في قولِه تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾؛ للدَّلالةِ على الاسْتراحةِ من إنكارِه عليهم اسْتراحةً تامَّةً كاملةً، من دعوتِه وطهارتِه وعفَّتِه، فإذا خرجَ بشخصِه وجسمِه ونُفيَ من أرضِه، لم يعدْ له عليهم أيُّ سبيل؛ لأنَّ صدورَهم تضيقُ عن تحمُّلِ الموعظة،

(1) السُّهيلي، نتائج الفكر، ص: 126، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 101 - 102.
(2) الأنباري، أسرار العربية، ص: 127، والجرجانيّ، المقتصد في شرح الإيضاح: 1/ 356 - 357.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5466.

وأسماعَهم تصمُّ لقَبولِها، ولم يزلْ من شأنِ المنغمسينَ في الهوَى تجهُّمُ حُلولِ مَنْ لا يشاركُهم بينَهم[1].

بلاغةُ الإضافةِ في ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾:

جاءتِ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ آلَ لوطٍ عليه السلام كانوا مؤمنين برسالته، وهما ابْنتاه رغواءُ وزَيْفاءُ، ومَن تبعَه منَ المؤمنين، فآلُ لوطٍ همُ المؤمنون به وأهلُ بيتِه منهم[2]، وهمُ الذين كتب اللّه لهم النّجاةَ من غِمار ذلك العذاب المُفعَم بالغضب والسّخط، وقد وقع على القوم الكافرين والمعاندين، وأُلحقت بهم امرأةُ لوطٍ، لِما كان لها من دور، في مناصرة الكفر، والدّلالةِ على مواطن أذَى لوطٍ والمؤمنين.

أهـلُ نبـيِّ اللهِ لـوطٍ، والمؤمنون بـه معهـم، هم آلُ بيتِه

دلالةُ الحرفِ ﴿مِّن﴾ في السّياق:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: ابتداءُ خروجِهم من قريتكم، وقد تكون بمعنى (عن) أي: عن قريتكم؛ لأنَّ فيها معنى الإبعادِ عنِ المكانِ الَّذي هو القريةُ.

مدلولُ الإخـراجِ مـنَ الـقـريـةِ أو عنها

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ (القريةِ) دون سواها:

القريةُ: اسْمٌ للموضعِ الَّذي يجتمع فيه النّاس، وللنّاس جميعًا، ويُستعملُ في كلٍّ واحدٍ منهما[3].

وآثرَ النَّظمُ الكريمُ اسْتعمالَ لفظِ القريةِ دون سواها، في قولِه تعالى: ﴿قَرْيَتِكُمْ﴾؛ لأنَّ المرادَ منها المدينةُ بمكانِها، والَّتي يجتمعُ النّاسُ فيها، ويَحرِصونَ على سُكناها، فهي تعني بالنّسبة لهم تجمّعًا ذا قيمةٍ عاليةٍ، وصدَرَ هذا اللَّفظُ منهم زيادةً في مِنَّتهم على لوطٍ عليه السلام وآلِه، أن كان بينهم في هذه القرية مع أهله، وزيادةً في التَّنكيل بهم بإخراجِهم منها، وهي عندهم ذاتُ شأنٍ عظيم.

تـفـاخـرُ قـوم لـوطٍ بنسبتهم لأرضـهـم الَّـتـي يقيمون عليها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 234.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 101.
(3) الرّاغب، المفردات: (قرى).

إضافةُ القرية إلى المخاطَبين:

تهويـنُ أمـر إخـراجِ لـوطٍ وآلِه، من مكانٍ هم أصحابُه

أُضيفتِ القريةُ إلى المخاطَبين في قولِه تعالى: ﴿قَرْيَتِكُمْۖ﴾، إظهارًا لمنَّتهم عليه بإسكانِه عندهم، وإذا كان ذلك كذلك فإنَّ لهمُ الحقَّ في إخراجِه منها متى شاؤوا، وفي هذا فَرْطُ قُبحِ أخلاقِهم وسوء طَويّاتهم[1]. وكذلك فإنَّ في هذه الإضافةِ تهوينًا لأمرِ الإخراج، وكيف لا وهم أصحابُ الأرض والقرار؟![2].

سرُّ فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ﴾ عمّا سبق:

قلبُ الموازين، بتعليلِ أمرِ الإخراجِ بالطَّهارة والعفَّة

جملةُ: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، جملةٌ تعليليّة لقولِهم تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾، أفادتْ كونَها علَّةً للأمرِ بالإخراج، وهو طهارةُ لوطٍ ﷺ وآلِه وعفَّتُهم، واستنكارُهم لِما عليه القومُ منَ القبائحِ والشُّذوذ[3].

مجيءُ وصفِ آلِ لوطٍ بأنّهم ﴿أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾:

مَن لا يوافقُ أهلَ الفواحشِ، يُقصَى ويُسخَرُ منه

جاءَ وصفُ آلِ لوطٍ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على علَّة إخراجِهم منَ القرية، أي: عابوهم بما يُمدَح به، أي: لأنَّهم لا يوافقوننا على ما نحن عليه، ومَنْ لا يوافقُنا وجبَ أن نُخرجَه[4]. ويحملُ هذا الوصفُ كذلك سُخريةً بهم وبتطهُّرهم منَ الفواحش، وافْتخارَ القومِ بما كانوا فيه منَ القَذارة[5]، كما يقولُ الشَّيطانُ منَ الفَسَقَةِ لأحَدِ الصُّلحاء إذْ وعَظهم: أَبعدوا عنّا هذا المتقشِّفَ، وأَريحونا من هذا المتزهِّد[6].

دلالةُ لفظِ (التَّطهُّرِ) بصيغةِ التّفعُّل:

زيادةُ المبنَى تدلُّ على زيادةِ المعنَى

التَّطهُّرُ: تكلُّفُ الطَّهارة، وحقيقتُها النَّظافة، وتُطلَقُ الطَّهارة –

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 213.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 235.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 102.
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 154.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 102.

مجازًا - على تزكيةِ النَّفْس، والحَذَرِ منَ الرَّذائل، وهي المرادُ هنا، وهي صفةُ كمال، لكنَّ القومَ لَمّا مَرَدوا على الفُسوق، كانوا يَعُدّون الكمالَ مُنافِرًا لطباعِهم، فلا يُطيقونَ معاشرةَ أهلِ الكمال، ويَذُمّون ما لهم منَ الكمالاتِ، فيُسمّونها ثِقْلًا، ولذا وصفوا تنزُّهَ لوطٍ عليه السلام وآلِه تطهُّرًا، بصيغةِ التَّكلُّفِ والتَّصنُّع، ويجوزُ أن يكونَ حكايةً لِما في كلامِهم منَ التَّهكُّم بلوطٍ عليه السلام وآلِه، وهذا من قلبِ الحقائق لأَجْلِ مَشايعةِ العوائدِ الذَّميمة، وأهلِ الفِسقِ والمجون[1].

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾:

طهارةُ لوطٍ عليه السلام وأهلِه، فطرةٌ مستمرّةٌ معهم

جيء بـ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ خبرًا بجملةٍ فعليَّة مضارعيَّة؛ لدَلالتِها على أنَّ التَّطهُّرَ متكرِّرٌ من لوطٍ عليه السلام وآلِه، ومتجدِّدٌ، وذلك أَدْعَى لِمُنافَرتِهم طباعَهم، والغضبِ عليهم وتجَهُّم إنكارِ لوطٍ عليه السلام عليهم[2]، وعليه "فلم يكن من قوم لوط، حين دُعوا إلى التّطهّر من تلك القذارة، إلّا أن حَمَلوا على لوطٍ والمؤمنين معه، وطلبوا إخراجَهم منَ القرية لمخالفتهم لهم فعلتَهم الدّنيئةَ، وترفّعِهم عن رجس ما هم عليه.. قال قتادة: "عابوهم بغير عيب: أي إنّهم يتطهّرون من أعمال السّوء"[3].

حذفُ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾:

لوطٌ عليه السلام وآلُهُ، يتطهَّرون عن إتيانِ الفواحشِ

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعل ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ لدلالةِ السّياقِ عليه، حيث قال لهم لوطٌ عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النّمل: 54 - 55]، أي: إنَّهم أُناسٌ يتقذَّرون عن إتْيانِ أَدْبارِ الرِّجال والنِّساء، وهم يأتون النِّساءَ في الأطهار، ويتنزَّهونَ عن فعلنا، ويَغْتسلون منَ الجنابة، ويتطهَّرون بالماء[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 235.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 235 - 236.
(3) مأمون حمّوش، التّفسير المأمون: 5/ 557.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 102.

سرُّ العطفِ في جملة ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

بيانُ أنّ إرسال لوطٍ إلى قومِه، كان مقدّمةً لنزولِ العذابِ بهم

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ تعقيبٌ لجملةِ: ﴿*فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أو لجملة: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: 54]، وهذا التَّعقيبُ يُؤْذِنُ بأنَّ لوطًا عليه السلام أُرسِلَ إلى قومِه قبلَ حلولِ العذابِ بهم بزمنٍ قليل[1].

والفاءُ في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ الَّذي يفيدُ عدمَ تأخيرِ الإنجاء؛ بل هو إنجاءٌ سريعٌ، ولذلك أمرَ اللّٰهُ نبيَّه لوطًا، فقال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: 81]، وقال ﷻ: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر: 65]، أي أنَّه ﷻ قرَّرَ هلاكَهم، وقرَّرَ النَّجاةَ للوطٍ وأهلِه، فكان معقّبًا أو مقارنًا لتقريرِ الهلاك، وهو أقربُ منَ التَّعقيب[2].

اختيارُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ دون (نجَّيناه):

تنجيةُ اللهِ لِلوطٍ وأهلِه قبل حُلولِ العذابِ بقومِهم، خصوصيّةٌ وتكرمةٌ

الفعلُ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾، يُستعمَلُ للإسراعِ في التَّخليصِ منَ الكَرْبِ والشِّدَّة، كما هنا، في تخليصِ لوطٍ عليه السلام وأهلِه منَ العذاب، ويكون هذا كذلك قبل التَّعرُّضِ للمِحنةِ والبلاء، وذلك بالإبعادِ عنِ الخطرِ القادم، وأمّا (نجَّينا) فيقتضي التَّلبُّثَ والتَّمهُّلَ في التَّنجية، ولم يكنِ الأمرُ كذلك مع لوطٍ وأهلِه.

مرجعُ ضميرِ الفعلِ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

المُنجّي هو اللهُ، لا أحدَ سواه، والسّعيدُ من رضيَ اللهُ عنه وأرضاه

الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعودُ على الفاعلِ الحقيقيِّ، وهو اللّٰهُ ﷻ، أي: بعظمتِنا وقدرتِنا ورَحْمتِنا أَنْجينا رسولَنا لوطًا عليه السلام، ذلك أنّه في ذلك الهلاك العامّ الّذي عمّ تلك الدّيارَ، ومحا تلك العمائرَ والآثارَ، وقد احتدم البلاء، وجاء أمرُ اللّٰه القاهرِ الجبّارِ، لا رادَّ لأمره، ولا مُنجيَ من عذابه، إلّا باللّجوء إليه، وهو الّذي تعهّد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 236.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5467.

بنجاة نبيّه لوطٍ، وحمايةِ أهله المؤمنين الصّالحين، باستثناء امرأته، وذلك ما عبّر عنه اللّفظُ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ في هذا السّياق المُحكَم.

سرُّ عطفِ ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ عليه:

مَن اتّبع الأنبياء كان في زمرة النّاجين

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الأهلَ على لوطٍ ﷺ في الإنجاء، فقال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾، للدَّلالةِ على أنَّ اللّهَ أنجَى نبيَّه وأهلَه كلَّهم منَ العذابِ الَّذي حلَّ بقومِه، ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ وهُمُ المؤمنون به ومعه ابْنتاه[1]، وقد نجّى اللّه تعالى أهلَ لوطٍ، كما نجّى أهلَ نوحٍ من قبل، واستثنى امرأة لوط، كما استثنى امرأة نوح من قبل، وانطبق عليهما نفسُ الحكم، قال تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ [هود: 40].

دلالةُ الاستثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾:

امرأةُ لوطٍ خانتْ زوجَها في رسالتِه ودعوتِه، فشملَها العذابُ

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ أي: إلّا امرأةَ لوطٍ ﷺ، فلم تَنْجُ، وكانت منافقةً تُسِرُّ الكفرَ، مواليةً لأهلِ سَدوم، فأصابَها منَ العذابِ ما أصابَ قومَها، فاكتفَى بها في أنَّها لم تَنْجُ، ثمَّ ابتدأ وصفَها بعد ذلك بصفةٍ لا تتعلَّقُ بها النَّجاةُ ولا الهلَكة، وهي أنَّها كانت ممَّن أَسَنَّ وبقي من عصرِه إلى عصرِ غيرِه، فكانتْ غابِرة، أي: متقدّمةً في السِّنّ[2].

إيثارُ التَّعبير بلفظِ (المرأةِ) دون (الزَّوجة):

لم تكنِ امرأةُ لوطٍ ﷺ مؤمنةً على دينِ زوجها، فهلكت

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ أي: زوجتَه، فامرأةُ الرَّجلِ بمعنى زوجته، ولم ترد بقول: (إلّا زوجتَه)؛ لأنَّ المرأةَ إذا أُضيفتْ للرَّجُلِ بالاسْمِ العامِّ، عُرِفتِ الزَّوجيَّةُ ومِلْكُ النِّكاح[3].

ويمكنُ أن يكونَ ذكرُ المرأةِ هنا في قولِه تعالى: ﴿ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ أي:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 102، والبقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 183.
(2) البحر المحيط: 5/ 102، والبقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 183.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/ 312.

امرأةَ لوطٍ ﷺ دون أن يقول: (زوجَه) أو (زوجتَه)؛ لأنَّ لفظَ الزَّوجةِ يُطلَقُ على الحالاتِ الَّتي تكونُ فيها المرأةُ على توافقٍ مع زوجِها في الدّينِ والعقيدة، أو من ناحيةِ التَّوافقِ النَّفسيّ، أمّا المرأةُ فيُطلَقُ على الزَّوجةِ الَّتي انقطعتْ صلتُها بزوجِها من ناحيةِ العقيدةِ، أوِ التَّوافقِ النَّفسيِّ والرَّحمةِ والمودَّة، وهو ما كان من امرأةِ لوطٍ ﷺ، حيث كانت تُظهِرُ الإيمانَ وتُبطِنُ الكفر(1).

سرُّ اختيار فعلِ التَّقديرِ ماضيًا في ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾:

ما قـدَّره اللـهُ تعالى بحكمته، متحقِّقٌ نافذٌ بتدبيره وإحاطته

جاءَ فعلُ التَّقدير ماضيًا، في قولِه تعالى: ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾؛ لأنَّ المرادَ ما قضاه اللّهُ تعالى من قبلُ في شأنِها في علمِه، وأَوْقَعه في قدَره، أي: جعلْناها بتقديرِنا منَ الغابرين، أوْ قدَّرْناها بما كتَبْنا عليها، وقضَيْنا أنَّها منَ الغابرين، فهو أمرٌ متحقِّقٌ لا محالةَ(2).

مرجعُ الضَّمير في الفعل ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾:

الله تعالى مالكُ الملك، يفعلُ ما يشاء، ويحكمُ ما يريد

مرجعُ الضَّميرِ في الفعلِ ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾، وهو (الهاء)، إلى امرأةِ لوطٍ ﷺ، المتقدِّمِ ذكرُها في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾، أي: جَعَلْنا امرأةَ لوطٍ ﷺ، بعظمتِنا وقُدرتِنا في الحكم، وإن كانتْ خرجتْ معه أنَّها منَ الغابرين(3)، وفي تقدير اللّه تعالى أنّها منَ الهالكين دليلٌ على عظيم حكمته وقدرته، فهو سبحانه يفعل ما يشاء، وكلُّ شيء عنده بقدَرٍ ومقدارٍ، ومعنى ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: تركناها منَ الباقين في العذاب. ويقال: قضينا عليها أنّها منَ الباقين في العذاب(4)، وما حلّ بامرأة لوط، كان على شاكلة ما وقع لامرأة نوح من قبل، حالةً وعاقبةً، حيث قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [التّحريم: 10].

(1) عائشة عبد الرّحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ص: 230، وعبد العظيم المطعني، خصائص التّعبير القرآني: 1/ 295 - 296.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 95، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 192.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.

(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 589.

نكتةُ ذكْرِ الضَّمير في الفعل ﴿قَدَّرْنَهَا﴾:

قدَّرَ اللهُ كونَ امرأةِ لوطٍ منَ الهالكين، لإبراز وعيدِه للكافرين

ذكرَ النَّظمُ الكريمُ الضَّميرَ في قوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَهَا﴾، وتقديرُ الكلام: (قدَّرنا كونَها منَ الغابرين)، وقُدِّرَ المضاف هنا؛ لأنَّ التَّقديرَ يتعلَّقُ بالفعلِ لا بالذّات، وجاء في آيةٍ أُخرى ما يقتضي ذلك، وهو قولُه تعالى: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾ [الحجر: 60][1].

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

بيانُ مصيرِ امرأةِ لوطٍ عليه السلام، في أيلولتها إلى الهلاك المُطبِق

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ تبعيضيّةٌ، والمعنى: امرأةُ لوطٍ عليه السلام كانت بعضًا منهم[2]؛ أي منَ الباقينَ مع قومِها في العذاب، فقد "أصابها مثلُ عذاب الرّجال سواء، لم تنقص عنهم لأنها كانت كافرة مثلَهم"[3].

نكتةُ مجيءِ لفظِ ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ اسْمًا:

امرأةُ لوطٍ عليه السلام منَ المعذَّبينَ بقدَرِ اللهِ وحُكمِه

جاء لفظُ ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ اسْمًا للدَّلالةِ على تحقّق الغُبور فيهم ولصوقِه بهم، وهُمُ الباقون في العذابِ الهالكون به، ومنهم امرأةُ لوطٍ عليه السلام، أي: امرأةُ لوطٍ منَ الباقين في العذاب، بما قدَّره اللهُ في أمرِها مع قومِها[4]، فقد كانت تدلّ قومها إذا جاء لوطًا شابٌّ أو رجل، كما فعلت عندما جاء ملائكةُ الرّحمن، حيث جاؤوا يخبرونه بأن يترك البلدَ خلال ثلاثة أيّام، وبأنّه سبق في علم الله تدميرُ قرية سَدوم، والقضاءُ عليها وسحقُها، وجعلُ عاليها سافلَها، وإمطارُها بحجارة من سجيل"[5].

حذفُ متعلّقِ لفظ ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

تنجيةُ المؤمنينَ وإهلاكُ الكافرين، عدلٌ من الله تعالى

لم يذكرِ النَّظمُ الكريمُ متعلَّقَ ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، فيقول: (من

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 214.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 409.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/ 457.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 214.
(5) الكتانيّ، تفسير المنتصر الكتانيّ: 5/ 137.

الغابرين الَّذين بَقَوْا في ديارِهم فهلَكوا)؛ لأنَّ قولَه المتقدّمَ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾، دلَّ على أنَّ التَّنجيةَ كانت للوطٍ ﷺ ولأهلِ بيتِه والمؤمنين معهم، وأنَّ غيرَهم بَقَوْا في ديارِهم فَهلَكوا بالعذاب، فلا حاجةَ لإعادةِ ذِكْرِ ما فُهِمَ منَ السّياق. وكذلك فإنَّ قولَه: ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، تفسيرٌ وتوكيدٌ لما تضمَّنه الاسْتثناءُ، من كونِها لم يُنجِها اللّهُ تعالى كقومِها[1].

بلاغةُ العطفِ في ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، عطفًا على قولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾، فبدأ بإنجاءِ نبيّه وأهلِه، وعطفَ عليه إمطارَ العذابِ، مع أنَّ الأصلَ أنْ يقال: فأَمْطرْنا عليهم مطرًا وأنجيناهُ وأهلَه وذلك لبيانِ رعايةِ اللّهِ وحفظه لنبيِّه والمؤمنين معه، وهمُ الأصلُ في الخير والأحقُّ في الحفظِ الإلهيّ، ومَن خالفَهم وأرادَ إيذاءَهم أمْطرهُم اللّهُ بوابلِ عذابِه وأذاقَهم سوءَ انْتقامِه.

انتقامُ اللهِ من أعدائه، وإنجاءُ أوليائه

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ دون غيره:

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾، للإشارةِ إلى أنَّه إمطارُ عذابٍ بالحجارةِ، مع تعْديته بالهمزة، وهو مُعدّى بدونِها، فصارت كأنَّها لإزالةِ الإغاثةِ بالإتيانِ بضدِّها، فهو ليس مطرَ خيرٍ وانْتفاع؛ بل مطرَ شرٍّ وانْدثار، وقد ضُمِّن ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ معنَى أرسلْنا، فلذلك عدّاه بـ(على)[2].

إمطارُ أهلِ الكفرِ والشُّذوذِ عذابًا، يَستأصلُ شأفتَهم ويُبيدُهم

مرجعُ ضميرِ الفعلِ ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ أي: أمطرْنا نحن بقضائنا وقَدَرِنا وعظمتِنا، وبقُدْرتِنا وحُكْمِنا على المعاندين الشّاذّين عذابًا مُهلِكًا[3]،

اللهُ هو المنتقمُ المعذِّبُ لأعدائه، ولا يُعجزه أحدٌ مهما قوي أو عتا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 102.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 14/ 183.

وقد نسب المطرَ إليه سبحانه، في قوله ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾، للدّلالة على هول المطر، الّذي أهلك القوم الكفرة، ودمّر بلادهم، فأصبحت أثرًا بعد عين، وهو مطر لم يَسبق له مثيلٌ، ومعلومٌ أنّ من خصائص القرآن الكريم أن يستعمل كلمةَ المطر للدّلالة على العذاب والهلاك، والتّعبيرِ عنِ الدّمار والفيضانات، وما يتبع ذلك من سحقٍ ومحقٍ، لا يُبقي ولا يذرُ، بينما يَستعملُ كلمةَ الغيث، دلالةً على الخير والنّفع[1].

دلالةُ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيْهِم﴾:

بيانُ أنّ الحجارة أظلّتهم من فوقِهم فأهلكتْهم عن بَكرتهم

دلَّ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْهِم﴾ على أنَّ الإمطارَ كان مُستعليًا عليهم مُستحكِمًا بهم، لا يستطيعون الفرارَ منه؛ لأنَّه من فوقِهم، أي: أَمْطَرْنا عليهم من فوقِهم حجارةً منَ السَّماءِ تصيبُهم على رؤوسهم فتُهلِكهم[2].

بلاغةُ تقديمِ المسنَدِ في السّياق:

العذابُ حالٌّ بالقومِ الشّاذّين، لا بغيرهم منَ الطّاهرين

في تقديم ﴿عَلَيْهِم﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، فلم يقل: (فَأَمْطَرْنا مطرًا عليهم)؛ دلالةٌ على قَصْرِ المطرِ - وهو مطرُ عذابٍ - عليهم لا على غيرِهم، فهُمُ المعنيّون به لا غيرُهم، وهمُ المختصّون - بأمرِ اللّه - بالإهلاكِ دون غيرِهم من المؤمنين برسالة لوطٍ عليه السلام، فالمطرُ الّذي يحملُ في حجارتِه قَتْلَهم وإحراقَهم جنديٌّ من جنودِ اللّه، مأمورٌ بأمرِ خالقِه ﷻ، لا يخالفُ مولاه ولا يتعدّى حدودَ مأموريَّته، لا كما فعلَ أولئك الشّاذّون السّادِرونَ في غَيِّهم، يَصدّونَ دعوةَ نبيِّه، ويتكبَّرون على أهلِه والمؤمنين به، ويأمرونَ بإخراجِهم من قريتهم ظلمًا وعدوانًا، ومَن كان هذا حالُه مع نبيِّ اللّهِ وأهلِه، لا مُغيثَ له ولا مُجير[3].

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 19/ 230.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 102.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِم﴾:

عَوْدُ الضَّمير على قومِ لوطٍ عليه السلام المُستحِقّين للعذاب

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِم﴾ عائدٌ على الَّذين قالوا: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وهم الَّذينَ وصفَهمُ اللّٰهُ بقولِ لوطٍ لهم: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النَّمل: 54 - 55].

سرُّ التَّنكيرِ في لفظ ﴿مَّطَرٗا﴾:

بيانُ أنّ المطر كان غزيرًا، وأنّ حجارته كانت قاتلةً

جاءَ قولُه تعالى: ﴿مَّطَرٗا﴾ بصيغةِ التَّنكير، للدَّلالةِ على الكَثْرةِ الكاثرة، وقذائفِ الحجارةِ العامرةِ الغامرة، أي: وأيُّ مطرٍ هذا المطرُ الَّذي أَمْطَرْنا عليهم؟!! إنَّه مطرٌ لا يُقادَرُ قدرُه، ولا يُدفعُ قَطْرُه، ولا مَنجى ولا مَلْجا منه، ولا وقايةَ من أذاه وسوئه[1]، إنَّه مطرٌ شديدٌ غيرُ معهود[2].

دلالةُ الفاء في قوله ﴿فَسَآءَ﴾:

الاستئنافُ تجديدٌ لِمَعينِ المعنى، وإفصاحٌ عنِ المدلول المستفاد

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ اسْتئنافيَّةٌ، أي: قولُه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾ على نحوِ ذاك المطرِ العجيبِ، في رمْيِهم بالحجارةِ القاتلة، سُبِّبَ عنه قولُه تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾[3].

دلالةُ أسلوبِ الذَّمِّ في الآية:

بِئْسَ العذابُ عذابٌ يكون بالأهوال والاستئصال

في قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، بيانٌ كافٍ في الذَّمّ، أي: بِئسَ مطرُ المنذَرين[4]، أي: ما أَسْوَأَ مطرُ المنذَرينَ ذاك المطر[5]. ومعنى العبارة، أنّنا أنزلنا عليهم منَ السّماء حجارةً، هي أشبه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 270.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 14/ 183.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 214.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5467.

بالمطر، في وابله وتراكُمه، وقد فاجأتهم بغزارتها وسرعةِ نزولها، وقوّةِ دمارها، وبذلك فهي أسوأ المطر، وأشدُّه إيلامًا وأذاةً، ولذلك عبّر عنها بعبارة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، أي ما أسوأَ مطرَ المنذرين الّذين أنذرهم[1].

سرُّ إعادةِ لفظِ المطرِ هنا:

أعادَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ المطرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، لتأكيدِ سوء العذاب وتهويله، وأنَّ سوءَ الأثرِ يكونُ ناتجًا عن سوءِ الفعلِ الَّذي نشأ عنه، وأيُّ فعلٍ أسوأُ من فعلِ الشُّذوذِ عنِ الفطرةِ السَّويَّة، ولذلك استحقَّ أصحابُه تأكيدَ ما أصابَهم منَ العذاب[2].

تأكيدُ ما أصابَ القومَ من عقاب، بتعبير المطر عن سوء العذاب

بلاغةُ إضافةِ المطرِ إلى ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾:

أضافَ السّياقُ المطرَ إلى المنذَرين في قَولِه تعالى ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، لبيانِ أنّهم قد أُنذروا بالعذاب، وأنّ نبيّهم قد حذَّرهم وخوّفهم، فلا حجّةَ لهم يدفعون بها عذاب اللّه وقد بلغهم الوعدُ والوعيد، فما أسوأَ هذا المطرَ الذي نزل بالذين خوّفهم لوطٌ عليه السلام[3].

بيانُ المناسبة بين سوء المُنذَرين، وسوء المَطَر

نكتةُ مجيءِ لفظِ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ اسْمًا:

الاسْمُ يدلُّ على تحقّق الوصف في المسمّى، وتمكّنِه فيه، فالتّعبير هنا بقوله: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يدلُّ على وصول النّذارة إليهم، وتمكّنِها منهم، فقد أنذرهم نبيُّ اللّه لوطٌ عليه السلام، وبلّغهم رسالةَ ربّهم أتمَّ بلاغ، لكنّهم عاندوا وكابروا واتّبعوا شهواتِهم وانتكاسَ فطرتهم.

لا عذاب إلّا بعد إنذار وحُجَّة

سرُّ حذفِ متعلَّقِ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، أي: فبئس مَطَرُ الَّذين

ساءَ مطرُ المنذَرينَ لمّا فَحُشوا

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 167.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.

أُنْذِروا بالعذاب، ذلك أنَّهم كذَّبوا نبيَّهم وأَمَروا بإخراجِه وأهلِه من قريتِهم كما ذُكر في السّياقِ المتقدِّم، فالمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، أي: ساءَ مَطَرُ المنذَرينَ مطرُهم[1]، والحذف هنا لدلالة السّياق عليه، ولزيادة التّهويل والتّشنيع.

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 192، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5467.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»